الخبازة ـ للمصور محمد ناجي

# صفحات من حياة المصور

# ناجى

## بمناسبة الذكرى التاسعة لوفاته

بقلم سعد الخادم

**يجدر** بنا ونحن مقبلون على عهد تفتح وتطلع سياسى ، أن ندرس اقطاب حركتنا الفنية ، وجوانب حياتهم الخاصة ، لنستشف مدى تفاعلهم بالمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه ، ولاسيما تفاعلهم والسواد الأعظم من العاملين والكادحين فى هذا البلد ، لنقيس وسط ما سجلوه من احاسيس ، أو دونوه من خواطر فى رسائلهم أو مذكراتهم الخاصة لا خواطرهم فى مذاهب الفن وتقويمهم للتيارات المتدفقة ، بل خواطرهم فى سردهم لأطوار حياتهم ودخائل نفوسهم ، ففى ما اثر عنهم من أقوال ، وما فطنوا اليه من معرفة ، نتبين أكان أقطاب وأعلام حركتنا الفنية وروادها فى مستهل هذا القرن على قدر واف من الوعى السياسى الحقيقى ؟ وهل أحسوا بتلك الدوافع والمحركات القومية التى تلهمنا اليوم ؟ بل وهل كانت فى صميم حياتهم ملامح أو بوادر للوعى الاشتراكى الذى نؤمن به اليوم ؟ ونحن فى سعينا لبيان تلك الجوانب الخفية التى طالما غابت عن رواد النقد الفنى ـ نذكر علما من أعلامنا . لقد أسهب عشاق الفن فى ايضاح ميزات لوحات ناجى، والفترات التى بلغ فيها هذا الفنان فى مضمار التصوير ذروة مجده . ولكننا لا نمضى فى ركب هذه التحاليل المخصصة لأرباب حرفة الفن وصناعتها فحسب ، بل ـ كما سبق القول ـ نحاول أن نكشف اللثام عن حياة ذلك الفنان فى دخائله وخصوصياته ، لعلنا فى حكمنا على مسالكه نهتدى الى حقيقة طابعه السياسى المنعكس فى مزاجه الفنى .

* توفى ناجى ـ رحمه الله ـ فى ٥ من ابريل ١٩٥٦ .

ولد ناجى بالاسكندرية فى ١٧ يناير ١٨٨٨ ، ونشأ فى اسرة متوسطة الحال ، وهيأت له الظروف فرص الاتصال من الثقافة الغربية، لاسيما الجانب الفرنسى منها، وكان ميالا منذ صباه الى العكوف على تحصيل دروسه، وتميز بحسن خطه وشغفه الشديد بقرض الشعر والخروج فى خلوة على ضفاف ترعة المحمودية ، على مقربة من دار أسرته ليرسم فى خيال طفولته مناظر الريف بين ضحاها وعشاها ، وما تثير فيه من وجدان وخيال يعيد الى تلك الرقعة الخصبة من الارض امجاد تاريخها ، فما أن تلمح عيناه الملاحين والنوتية فى أثناء ادبارهم واقبالهم ، وهم فى صفوف متراصة على الشاطىء يسحبون سفنهم المثقلة بما تحمل من متاع، حتى يتخيلهم وكأنهم قد غلوا بالاصفاد ، هؤلاء الذين يمثلون الكدح ويسوقهم الظلم والاستعباد والاستغلال ، فيبذلون العرق فى صبر ومثابرة واجتهاد الى حد الاعياء لعلهم ينسون فى كدحهم حقيقة الحياة البغيضة والسخرة التى يعيشون فيها وغذى الخيال فى الصبى ناجى أساطير القدامى التى تمر به فى دروسه نوادر منها البطولات أو مآسى لاقى الابطال فيها ـ أسوة بالمسرحيات اليونانية القديمة ـ حتفهم واستشهادهم فى ساحات الوغى ، أو يضحون بأرواحهم وسط طقوس غاشمة .

وهو اذ يصف فى بعض كتاباته وأشعاره المصريين القدامى وهم يقدمون الضحايا الآدمية للنيل فى كل عام ، والأحاسيس التى تختلج فى نفوس أولئك الذين أوشكوا أن يهلكوا انما يصور لنا فى قسوة تلك الطقوس كأنها مجازر وليست فى حقيقتها احتفالات وقربانا للنيل ليرسل فيضانه .

وجه من الصعيد ـ للمصور محمد ناجى

وانسه لاحاديث الريف واهتدائه الى كل عجيب مثير يأتى فيه والاندماج فى روح اهله وامكان تطويره وتحريك سماته . وان كان ناجى قد نجح فى طرق موضوعات الطحانة والخبازة وبائعة الدواجن وصانع الفخار أو ثاقب أو صاقل الآنية المرمرية بالقرنة وغيرهم من صناع وزراع من جانبين وجانبيات ، فانما يرسم ليسجل فى خطوط موجزة اساطير وأمانى هذا الشعب جاء تعبيرها فى صورة فطرية ولكن تكمن فى مضمونها معانى الطموح الذى أعرب عنه فى صورة « نهضة مصر » التى أوضح فيها صورة موكب شعب على نورج تركب فوقه ايزيس آلهة الفراعنة القدامى التى أحيطت بأهل الريف وهم عازمون على السير والمضى فى طريق رقيهم وتحررهم دون مبالاة .

وان كان ناجى حين صور هذا الجانب المستبشر من الحياة المصرية قد تأثر باحداث الثورة التى استشهد فى غضونها سنة ١٩١٩ الشباب من أهل المدن والقرى ، واندلعت فى صدور القوم السنة اللهب لطلب التحرر ، فنكل المغتصب المستعمر بنفوس الابرياء تنكيلا هو القسوة الهمجية ، فلقد صور ناجى فيما اسماه بلوحة موكب المحمل الجند وهم يحيطون بالهودج وفى أيديهم السياط وكأنهم بالفعل اولئك الخيالة الذين كانوا يسوطون الصبية والنسوة فى مسالك المدن وفى مظاهراتها التى كان يتخللها الطعن الاليم بالحراب ، كأنها تريد بلغية ابعاد هذا الجمهور الذى تجمع حول رمز الحرية لتفرقته فبانت لوحة ناجى وكأن الخيالة تبغى ابعاد الناس ايضا فى عمومهم من رمز الحرية الممثلة فى الهودج ! هودج الخلاص ، نبراس المستقبل .

ولقد طرق بعد عشرات السنين موضوع لوحة اراد فيها أن يؤكد أهمية تسلسل تراث هذا البلد وتعاقبه بما يجعلنا اليوم جديرين بارثه والمناداة بقوميته التى اتسمت فى عمومها اليوم بالطابع العربى ، فقد أنجز لوحة كبرى تدعى مدرسة الاسكندرية أوضح فيها الثقافات التى توالت على تلك المدينة ، وكانت مصدرا للاشعاع فى شتى العهود بفضل رجالاتها .

ولم تقف رغبة ناجى وتطلعه للنواحى التحررية التى طالما شغلته ، حيث بدأ حياته الفنية بتصوير جوليت آدم ، تلك السيدة الفرنسية التى آزرت مصطفى كامل فى دفاعه عن قضية بلاده ، فأدركها ناجى فى شيخوختها وآنس بآرائها ، وحاول فى لوحاته الأولى أن يقدم على موضوع لوحة كبرى تمثلها وتوحى بما أسهمت به فى نضال مصر لتحررها . ولقد اختتم ناجى حياته بعلاج موضوع تحرر قبرص من نير الاستعمار البريطانى فقد تعرف على الأسقف مكاريوس عن كثب وعرض عليه عزمه على تصوير جهاد أهل هذه الجزيرة فى لوحة يتمثل فيها أقطاب المقاومة السرية فيها ، وبالفعل شرع فى التخطيط وانجاز رسم تمهيدى لهذا المشروع الذى شعر أنه يهمه فقد كانت قبرص هذه من الجزر العربية التى استمر القصص الشعبى فى بلادنا يتغنى بنوادرها ونوادر أبطالها أسوة بصقلية وكريت وغيرها .

ولعلنا عن طريق هذه الجولة نتبين تلك الدوافع التى طالما حركت شخصية الفنان ناجى والهمتها ذلك الطابع الفنى الذى تميز به والذى ـ ولا ريب ـ يؤكد لنا وقوفه على قدر وفير من النضوج .

وهناك وسط تلك القراطيس التى خلفها عن فترة صباه ما يكشف عن نفسية هذا الشاب الثائر المذبحة دنشواى سنة ١٩٠٦ ، حيث انتقلت صورة الاستشهاد المرة تلو الاخرى فى صور محرفة بغية التنويه عن حقيقتها فى العديد من كتاباته وقت ذاك وهو اذ يمضى بعد ذلك ليسجل بالرسم جوانب للريف المصرى نراه يسجل فى موضوعات شتى ارباب الحرف والقرويين كالنخالين وغيرهم ، وكانهم قد أوثقوا بالفعل بالحبال ، أو بدت فى التواءات وتقلصات عضلاتهم سمة أولئك الذين استشهدوا أمثال زهران ، فلا نكاد ننعم النظر فى العديد من تلك العيون الشاخصة وتلك الوجوه الهائمة التى صورها وهى حاملة الفؤوس على اكتافها ، حتى نقرأ فيها قصة دنشواى واهل هذه القرية فى حملهم الفئوس على المغتصبين الطغاة الغادرين .

ولقد كان العديد من الناس الذين صادقوا ناجى وجالسوه يرون فيه شخصا متعصبا للثقافات الاوربية منحازا الى مشاغل الأدب والفن العالمى الحديث ، بعيدا عن مشاعر الشعب ، وما يخالجه من هواجس بين الأزقة وفى الاكواخ ، وكانوا فى اصفائهم لناجى فى مظهره المموه هذا يخفقون فى التعرف على بواطن شخصيته ذلك الجانب البعيد عن الحياة فى مجالس العواصم والحلقات الصاخبة ومجالات الصحافة والأدب والعلم والاختلاط والتفاعل بالتيارات المتدفقة من الثقافة الأوربية الواردة الى هذه البلاد فى الربع الأول من القرن الحالى تدفقا توارت بجانبه سائر التيارات الثقافية المحلية أو كادت .

نقول ان هؤلاء الذين زاملوا هذا الفنان لم يفطنوا الى الوجه المستتر فى حياته ، والذى كان فيه يؤم الريف وبخاصة جهة أبو حمص حيث كانت لوالده بعض الارض فيها ومنزل ريفى صغير يفد عليه بين حين وآخر وكان ناجى يتردد على ذلك المنزل فى الاوقات التى يخلو فيها من أهله وأقاربه وكالطفل الخجول كان يبقى أسابيع طوالا يصغى فيها فى وداعة الى أهل الريف وكل منهم يقص عليه حاله ، ومنهم من يستطرد فتنساق أحاديثه الى سرد ألوان من القصص الشعبى ، ومنهم من كان يفاتحه فى دخائل حياته ، وكان الصبية يتجمعون من حوله فلا يقص عليهم أعاجيب الحياة فى المدن وما استحدث فيها من نوادر ، بل يستمع الى قصص الأطفال وحكاياتهم الخرافية وسائر ما يجول فى صدورهم من مباهج أو مآس . وعلى كثرة أحاديث ناجى بين أهل المدينة ومعارفه ، كان يلتزم الصمت بين أهل الريف وكأنه فى تلك الفترات يتلقى فى خشوع ما للريف أن يحمله اليه من دروس تنعكس فيها الروح الريفية الحقة ، بل أسطورة هذا الشعب الذى شوهت ملامحها واختفت فى فترات الظلمات التى مر خلالها ، والعهود الطويلة التى نكل به فيها ، فانطوت معالمه وراء ظاهر يخدع عن الباطن حتى أيقن ناجى أن لا جدوى من رسمه أهل الريف وتصويره اياهم على النحو الذى سجله أهل الغرب منذ مطلع القرن الماضى وأفرطوا فى ايضاح سمة البؤس واليأس والقنوط ، بل سمة الاستهتار وعدم المبالاة ، وكأنهم فى نفوس هائمة على سطح هذه الأرض لا ارتباط لها بذلك التراث المجيد الذى شيد على ضفاف النيل وبين رحاب تلك القرى اذ يتعذر مهما بلغت مهارة الفنان الوافد الى هذه البلاد وحذقه فى تصوير الآدميين ـ أن ينفذ وراء هذا القناع الذى ارتسم على وجوه هؤلاء القوم من أهل الريف الجيل بعد الآخر ، وكادت وجوههم فى تقلصها تبدو وكأنها تحجرت حتى يتعذر النفاذ لما وراء تلك المظاهر الخداعة للوقوف على ما تفيض به حياة هذا الشعب من أمان وعزم وما ادخرته من قوة على الاقدام والاستبسال وغير ذلك مما ظل دفينا فى قلوب وافئدة أهل هذه القرى المثابرة العبوسة .

هذا بالاضافة الى قلة رغبة هذه الفئة من الفنانين الغربيين فى استنباط أية جوانب صادقة فى ملامح هذا الشعب حين ذاك، ورؤيتهم على الدوام ما يثير السخرية فى النفس ، أو يبعث فيها الشعور بالنفور تلك كانت دوافع أهل الفن من مستعمر أو مستغرب امتلأت نفسه بالكبرياء ، وأبت أن تقبل فكرة وجود ما يناظر ثقافته الغربية أو ما يستحق فى مظاهر هذا الشعب ومداركه أن يفيد كبرياء الأجنبى . ولقد ادرك ناجى تلك الثغرة التى استعصى الاهتداء اليها على هؤلاء الفنانين الغرباء ومن حذا حذوهم من مصريين ، من التغلغل الى أعماق روح هذا الشعب وأغوار الريف ، وما تكنه فى بواطنها من نفائس ، وتطلع ناجى فى غير ريف أبو حمص الى ريف الصعيد فى الاقصر على مقربة من آثار الضفة الغربية للنيل بقرية القرنة وغيرها ، حيث كان من أول الوافدين الى تلك المنطقة والساعين الى الاستقرار وسط الأهلين فيها ، اذ عقد العزم على الاقامة باحدى الدور التى يمتلكها بعض أهالى هذه القرية فاستقر فى رحاب الشيخ عبد الرسول والد الشيخ على عبد الرسول الذى يقطن فى هذه المنطقة اليوم ، وله هو وأسرته فى كشوف الآثار جولات كثيرة ـ وان أيقن ناجى بضرورة الفطنة الى الآثار الفرعونية فكذلك أيقن بضرورة معاشرة أحفاد صناعها للتعرف على عاداتهم وتقاليدهم ، بل الوقوف على فنونهم الشعبية والاشتراك فى أعيادهم والتعرف على ضروب مسراتهم ، وأواصر حياتهم وما توثقت به من خرافات أو وقائع تاريخية أو تدربت أيديهم على بقايا حرف وصنائع قديمة وما أشجى آذانهم من ألحان الريف الحزينة على أنغام الرباب.. الى نداءات الباعة أو صيحات النادبات وعذوبة مواويل الريف . وان هو عكف على الاصغاء العام بعد الآخر الى هذا العالم الرابض عند مداخل عرين الفراعنة فانه يطرب فى لهفة وعشق الى أحاديث أهل هذه المنطقة ، دون أن يناقشهم أو يتكبر عليهم بمعلوماته أو بأى ناحية من دواعى التعظم .

ولذلك نراه فى رسومه وتسجيلاته السريعة يسجل فى كل وجه أسطورة جديدة وكل وجه منهم يخالف غيره ، وعلى قدر الوجوه التى عبر عنها يتضح مدى ألفته لهؤلاء القوم الذين نظر اليهم غيره نظرة خاطئة فتمثلهم فى وجه واحد كالعين الرمداء التى ترى خطأ وجوه الزنوج مثلا أو وجوه الصينيين متشابهة متماثلة ، ويرون هذا التشابه فى الطبيعة كذلك ، وكان الحيوان فى فصائله والطير فى أنواعه لا فوارق بينها غير ما تلمحه العين الفاحصة من تفاصيل ودقائق ، اذ ترى فى الخيل فوارق وفى أنواع الطير تفاوتا وتباينا فى الفصيلة الواحدة ومهما بلغت قدرة أولئك الفنانين الذين سجلوا أهل الريف فلقد ظل الريف المصرى بالنسبة لهم وجوها جامدة ، أو بالاحرى أقنعة تتكرر فى بلاهة وغباء فى سائر اللوحات وقلما تباينت تقاطيع الوجوه وأفصحت لنا عما تكنه لا من تعبيرات خوف أو جزع ولكن ما تكنه من شخصيات ، وهذا ما تعرف عليه ناجى .

ومن اليسير أن نعبر عن وجوه باسمة أو ضاحكة أو عابسة ، ولكنها فى جملتها وجوه جوفاء أو أقنعة ليس الا ، فى حين تقص علينا وجوه ناجى قصة هذا الشعب والألفة التى شعر بها الفنان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com